في الأَذهان لا في الأَعيان، وزَعَموا أن إثبات الصِّفات يَستَلزِم ما سَمَّوه تَركِيبًا، وظَنُّوا أن العَقْل يَنفِيه، كما قد كَشَفنا أَسرارَهم، وبَيَّنَّا فَرْط جَهلِهم، وما أَضَلَّهم مِن الأَلفاظ المُجمَلة المُشتَرَكة في غير هذا المَوضِع.

وطائِفة ظَنُّوا أن التَّوحِيد ليس إلا الإقرارَ بتَوحِيد الرُّبوبِيَّة، وأن الله خَالِق كُلِّ شيء، وهو الذي يُسمُّونه تَوحِيد الأفعال.

ومِن أهل الكلام مَن أطال نظره في تقرير هذا التَّوحِيد، إما بدليل أن الاشتراك يُوجِب نَقْص القُدْرة، وفوات الكمال، واستِقلال كُل مِنَ الفاعلين بالمَفعول مُحال، وإما بغير ذلك مِن الدلائل، ويَظُنُّ أَنَّه بذلك قرَّر الوحدانيَّة، وأَثْبَت أَنَّه لا إله إلا هو، وأن الإلهية هي القُدرةُ على الاختِراع، أو نحو ذلك، فإذا ثَبَتَ أَنَّه لا يَقدِر على الاختِراع إلا الله، وأنه لا شَرِيك له في الخَلْق: كان هذا معنى قولنا: «لا إله إلا الله» ولم يَعلَم أن مُشرِكي العرب كانوا مُقرِّين بهذا التَّوحِيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦١].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الآياتِ [المؤمنون:٨٤- ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

قال ابن عباس وغيره: «تَسأَلُهم مَن خَلَق السَّمَوات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم مع ذلك يَعبُدون غَيرَه».

وهذا التَّوحِيد هو مِن التَّوحِيد الواجِب، لكن لا يَحصُل به الواجِب، ولا يَخلُص بمُجرَّده عن الإشراك الذي هو أكبر الكبائر الذي لا يَغفِره الله؛ بل لا بُدَّ أن يُخلِص لله الدِّين، فلا يُعبَد إلا إيَّاه، فيَكون دِينه كُلُّه لله.

و«الإله» هو المَألوه الذي تَألَهه القلوب، وكونه يَستَحِقُّ الإلهية مُستلزِمٌ لصِفات

الكمال، فلا يَستَحِق أن يَكون مَعبُودًا مَحبُوبًا لذاته إلا هو، وكلُّ عَمل لا يُراد به وجهه فهو باطل، وعِبادة غيره وحُبُّ غيره يُوجِب الفساد، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

وقد بَسطْنا الكلام على هذا في غير هذا المَوضِع، وبَيَّنَّا أن هذه الآية ليس المَقصُود بها ما يَقوله مَن يَقوله مِن أهل الكلام من ذِكر دليل التَّمانُع الدالِّ على وحدانيَّة الرَّبِّ تعالى، فإن التَّمانُع يَمنَع وجود المَفعول لا يُوجِب فساده بعد وُجوده، وذلك يُذكَر في الأسباب والبِدايات الَّتي تَجري مجرَى العِلل الفاعِلات.

والثاني يُذكَر في الحُكم والنِّهايات التي تُذكَر في العِلَل التي هي الغايات، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فقَدَّم الغاية المَقصُودة على الوَسيلَة المُوصِّلة، كما قد بُسِط في غير هذا المَوضِع.

ثُمَّ إن طائفة مِمَّن تكلَّم في تَحقِيق التَّوحِيد على طريق أهل التَّصوُّف ظَنَّ أن تَوحِيد الرُّبوبيَّة هو الغاية، والفناءَ فيه هو النِّهاية، وأنَّه إذا شَهِد ذلك سَقَط عنه استِحسان الحَسَن، واستِقباح القَبِيح، فآل بِهم الأمر إلى تَعطيل الأَمْر والنَّهْي، والوَعْد والوَعِيد، ولم يُفرِّقوا بين مَشيئَتِه الشامِلة لجَميع المَخلُوقات، وبين مَحبَّته ورِضاه المُختَصِّ بالطاعات، وبين كَلِماته الكَونِيَّات التي لا يُجاوِزها بَرٌّ ولا فاجِر؛ لشُمول القَدَر لكل مَخلُوق وكَلِماته الدِّينِيَّات التي اخْتُصَّ بمُوافَقَتها أنبياؤه وأَولِياؤه.

فالعبد مع شُهوده الرُّبوبِيَّة العامَّة الشامِلة للمُؤمِن والكافِر والبَرِّ والفاجِر عليه أن يَشهَد أُلوهِيَّته التي اخْتَصَّ بِها عِباده المُؤمِنين، الذين عَبَدوه وأطاعوا أَمْره، واتَّبَعوا رُسُله[١].

---

[١] يعني: هناك أناسٌ ظنُّوا أنَّ التوحيدَ هو تجريدُ الله تعالى من كلِّ صفةٍ، وقالوا: أنْ تُؤمِنَ بأنَّه الوجود المطلق بلا صفةٍ.

قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١].

وقومٌ قالوا: إنَّ التوحيد هو أنْ تشهَدَ أن لا إله إلَّا الله؛ يعني: أنَّه لا قادِرَ على الاختراع إلَّا الله، ولا خالقَ إلَّا الله، وهذا ليس توحيدًا، بل هذا توحيدُ ربوبيةٍ، والذي جاءت به الرُّسُلُ هو التركيز على توحيد الألوهية؛ لأنَّه الذي وقَع فيه الشِّرك.

وطائفةٌ أخرى ظنُّوا أنَّ الغاية هي مُشاهَدة الكون؛ يعني: مُشاهَدة الربوبية حتَّى رَضُوا بكلِّ ما يقع من خيرٍ وشَرٍّ، وطاعة ومعصية، وشِرك وتوحيد، قالوا: هذا هو توحيدُنا: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ رَضِيَ به فأوقَعَه، ونحن أيضًا نرضَى به.

ومن هؤلاء بعضُ الصوفيَّة يقول: إذا شَهِدت الكون فلا يهمُّك أحدٌ؛ ولذلك بعضُهم يغيبُ بمَذْكُورِه عن ذِكْرِه؛ بمعنى: أنَّه يغيبُ عن عبادةِ الله وعن طاعةِ الله؛ لأنَّه يقول: امتَلأ قَلبي من الله، ولا أحسُّ بشيء، وما العبادات إلا مُجرَّد أفعالٍ! حتَّى قالوا: إنَّ مَن عبدالله يبتغي بذلك من اللهِ فضلًا ورضوانًا فإنَّه لم يعبُدْه حَقًّا، مع أنَّ هذا هو طريق الأنبياء، والنبيُّ ﷺ وأصحابُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كما قال تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩].

فهؤلاء يقول عنهم شيخ الإسلام رحمه الله في رسالته التدمرية[1]: إنَّهم يفعَلُون فِعلَ المجانين؛ يقول أحدُهم: ما في جُبَّتي إلَّا الله، وهو لابس جُبَّةً! يقول: ما فيها إلَّا الله، ويقول من الهَذَيان: أنصِبُ خيمتي على جهنَّم ولا يهمُّني! ويقول: سُبحاني سُبحاني! مع شِدَّة الانفعال يقول: أنا الرَّبُّ! وذَكَر رحمه الله عنهم شيئًا عجيبًا، اللهم عافِنا!

---

(١) التدمرية (ص:١٣٣).

وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥- ٣٦].

ومَن لم يُفرِّق بَين أولياء الله وأعدائه وبين ما أَمَر به وأحبَّه مِن الإيمان والأعمال الصالحات، وما كَرِهه ونَهَى عنه وأَبغَضه مِن الكُفْر والفُسوق والعِصيان، مع شُمول قُدرته ومَشيئَته وخَلْقه لِكُل شَيء؛ وإلا وَقَع في دِين المُشرِكين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨].

والقَدَر يُؤْمَن به ولا يُحتَجُّ به، بلِ العَبْد مَأمور أن يَرجِع إلى القَدَر عند المَصائِب، ويَستغفِر الله عند الذُّنوب والمَعايب، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥][١]، ولهذا حَجَّ آدمُ مُوسى عليهما السلام، لَمَّا لامَ مُوسى آدَمَ لأَجْل المُصِيبة التي حَصَلت لَهُم بِأَكْله مِن الشَّجَرة[٢]، فذَكَر له آدمُ «أن هذا كان مَكتوبًا قَبْل أن أُخْلَق، فَحَجَّ آدمُ مُوسَى» كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

---

[١] هذه الكلمات هي قواعد عظيمة! فموقفنا من القدر هو الإيمان به، ولكن لا نحتجُّ به على شريعة الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥]، فالإنسان مأمورٌ عند المصائب بالصبر، وعند المعايب بالاستِغفار، اصبر واستغفر لذنبك.

وهذه قاعدةٌ عظيمة: «القَدَرُ لا يُحتَجُّ به ويُؤْمَن به»، والذنوب يَستغفِر منها ويتوب إلى الله منها، وأمَّا الأقدار فيصبِر.

[٢] خرَّج شيخ الإسلام رحمه الله هذا الحديث على أنَّ موسى عليه السلام احتَجَّ على آدم عليه السلام بالمصيبة، وهي إخراجه من الجنَّةِ، ولهذا لم يَقُلْ: خيَّبتَنا فعصيتَ، بل قال: أخرجتَنا، فهذا احتجاجٌ بالقدر على المصيبة، كأنَّ هذا الشيء مكتوبٌ عَلَيَّ، وكأنَّه

.....

= يقول: لو علمته ما فعلته، هذا المكتوب، والإنسان إذا أُصِيبَ بحادثٍ في سفر وقِيلَ له: كيف تُسافِرُ؟ يقول: هذا شيءٌ مكتوب، لكن هل هو سافر ليُصابَ في الحادث؟ أبدًا، فكذلك آدم عليه السلام ما أكَل ليخرُجَ من الجنَّةِ، بل غَرَّهُ الشيطانُ وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]، لكن حدثت المصيبة بقضاء الله وقدَرِه.

هذا الوَجْهُ لا شَكَّ أنَّه جيِّدٌ، ولا يُمكن لموسى عليه السلام وهو من أُولِي العَزْمِ من الرُّسُلِ أنْ يحتجَّ على آدم عليه الصَّلاة والسلام بشيءٍ مكتوبٍ عليه أبدًا، ولا يُمكن لآدَمَ أن يحتجَّ بالقدر على المعصية فهذا بعيدٌ.

أمَّا ابن القيِّم رحمه الله فخرَّجه على وجه آخَر، فقال: إنَّ هذا احتجاجٌ بالقدر بعد وقوع المقدور، ولا بأسَ به، واحتجَّ لذلك بأنَّ عليَّ بن أبي طالب وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أتاهُما النبيُّ ﷺ فقال لهما: «ألا تصليان؟» فقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ أنفُسَنا بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ولو شاء لأيْقَظَنا، أو كلمة نحوها، فولَّى الرسول ﷺ عنهما وهو يضربُ على فخذه وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1] [الكهف:٥٤]، فيقول: إن عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ احتجَّ بالقدَرِ على أمرٍ مضَى، والاحتجاجُ بالقدَرِ على أمرٍ مضَى لا بأسَ به، أمَّا الاحتجاجُ على أمرٍ يستمرُّ فيه الإنسان فهذا هو الممنوع.

ولذلك لو أنَّ رجلًا أتى معصية ولامَهُ أخوه وقال له: كيف فعلت هذه المعصية، فقال له الآخَر: كيف تلومُني وهذا مكتوبٌ عليَّ؟! قدَّر الله وما شاء فعَل، وأنا الآن تائب، ولن أعودَ -إن شاء الله- فهذا يُقبَل منه، وهذا التخريج لابن القيِّم وجيهٌ أيضًا[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على قيام الليل والنوافل من غير إيجاب، رقم (١١٢٧) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) شفاء العليل (ص:١٨).

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]، قال بَعْض السَّلف: هو الرَّجُل تُصِيبه المُصِيبة فيَعلَم أنَّها مِن عِنْد الله فيَرْضى ويُسَلِّم[١].

فهذا هو جِهة احتِجاج آدَمَ بالقَدَر، ومَعاذَ الله أن يَحتَجَّ آدمُ عليه الصلاة والسلام أو مَن هو دونه مِن المُؤمِنين على المَعاصي بالقَدَر؛ فإنه لو ساغ هذا لساغ أن يَحتَجَّ إبليس ومَنِ اتَّبعه مِن الجِنِّ والإنس بذلك، ويَحتَجُّ به قوم نوح وعادٌ وثمودُ وسائر أهل الكُفْر والفُسوق والعِصيان، ولم يُعاقَب أَحَد، وهذا مِمَّا يُعلَم فَساده بالاضطرار شَرْعًا وعَقْلًا.

---

[١] **قوله رحمه الله**: «بعض السَّلَفِ» هو علقمة رحمه الله، وهو أحدُ أصحاب عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من العلماء الأجلَّاء، وكأنَّه غابَ عن شيخ الإسلام رحمه الله اسمه حين كتابة هذا؛ ولذلك ينبغي إذا لم تتأكَّد من الشخص وأنت تريد أنْ تتحدَّث عن أحد من السَّلَفِ رحمهم الله أن لا تُعيِّن؛ لأنَّك قد تُخطِئُ، وخطَؤُك هذا يضرُّ غيرَك من وجهٍ، ويخدش سُمعتك ومنزلتك من وجهٍ آخَر، قل: قال بعض السَّلَف، وليس لازمًا أن تُعيِّنه فالأمر واسع.

وفي كلام علقمة رحمه الله[١] فائدةٌ عظيمة: إذا أردت طِيب الحياة فارضَ بالقَضاء والقدَر، فلن تجدَ مَن هو أنعَمُ بالًا من المؤمن بالقضاء والقدَر؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «عجبًا لأمرِ المؤمِن إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلَّا للمُؤمِن، إنْ أصابَتْه ضرَّاء صبَرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه سَرَّاء شكَرَ فكان خيرًا له»[٢]، ولا تقل: لو كنتُ فعلتُ كذا لكان كذا، بل ارْضَ بالواقِع، وإذا كرهتَ الشيءَ الواقع فقُلْ: الحمد لله، هذا قَضاء الله وقدَرُه.

---

(١) أخرجه البيهقي (٤/ ٦٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير، رقم(٢٩٩٩/ ٦٤) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن هذا القول لا يَطْرُده أَحَد مِن العُقلاء، فإن طَرْده يُوجِب أن لا يُلام أحد على شيء، ولا يُعاقَب عليه.

وهذا المُحتَجُّ بالقَدَر لو جَنَى عليه جانٍ لطالبه، فإن كان القَدَر حُجَّة للجاني عليه، وإلا فليس حُجَّة لا لهذا ولا لهذا.

ولو كان الاحتِجاج بالقَدَر مَقبُولًا لم يُمكِن للناس أن يَعِيشوا، إذا كان لكل مَنِ اعتَدَى عليهم أن يَحتَجَّ بذلك، فيَقبَلوا عُذْره ولا يُعاقِبوه، ولا يُمكِن اثنان مِن أهل هذا القول أن يَعيشَا، إذ لكلٍّ مِنهما أن يَقتُل الآخَر، ويُفسِد جميع أُموره، مُحتَجًّا على ذلك بالقَدَر![1]

ثم إن أولئك المُبتَدِعين الذين أَدخَلوا في التَّوحِيد نَفْي الصِّفات، وهؤلاء الذين أَخرَجوا عنه مُتابَعة الأَمْر إذا حَقَّقوا القولين أَفضَى بهم الأَمْر إلى أن لا يُفرِّقوا بين الخالق والمَخلوق؛ بل يَقولون بوِحدة الوُجود، كما قال أهل الإلحاد القائِلين بالوحدة والحُلول والاتِّحاد، الذين يُعظِّمون الأصنام وعابِدِيها، وفِرْعون وهامان وقومهما، ويَجعلون وجود خالق الأرض والسموات هو وجودَ كُلِّ شيء مِن المَوجودات، ويَدَّعون التَّوحِيد والتَّحقِيق والعِرفان، وهم من أعظم أهل الشِّرْك والتَّلْبِيس والبُهتان.

يقول عارفهم: السَّالِك في أَوَّلِ أَمْرِه يُفرِّق بين الطاعة والمَعصِية -أي: نظرًا إلى الأَمْر- ثُمَّ يرى طاعة بلا مَعصِية -أي: نظرًا إلى القَدَر- ثمَّ لا طاعة ولا مَعصِية أي: نظرًا إلى أن الوُجود واحد.

ولا يُفرِّقون بين الواحد بالعَيْن والواحد بالنَّوع، فإن المَوجودات مُشتَرِكة في مُسَمَّى الوجود، والوجود يَنقَسِم إلى قائم بِنفسه وقائِم بغيره، وواجِب بنفسه ومُمكِن

---

[١] لا شَكَّ أنَّ الاحتِجاج بالقدَر على أفعال العبدِ مخالفٌ للعَقل وللشَّرع.

بنفسه، كما أن الحيوانات مُشتَرِكة في مُسمَّى الحيوان، والأناسيُّ يَشتَرِكون في مُسَمَّى الإنسان، مع العِلْم الضَّرورِي بأنه ليس عين وجود هذا الإنسان هو عينَ وجود هذا الفَرَس؛ بل ولا عين هذا الحيوان، وحيوانيَّتُه وإنسانِيَّتُه هو عين هذا الحيوان وحيوانِيَّته وإنسانِيَّته، ولكن بينهما قَدْر مُشتَرَك تشابها فيه، قد يُسمَّى كُلِّيًّا، ومُطلَقًا، وقَدْرًا مُشتَرَكًا، ونحو ذلك.

وهذا لا يَكون في الخارج عنِ الأذهان كُلِّيًّا عامًّا مُطلَقًا؛ بل لا يُوجَد إلا مُعيَّنًا مُشخَّصًا، فكل مَوجود فله ما يَخُصُّه مِن حقيقته، مما لا يَشرَكه فيه غيره، بل ليس بين مَوجودَين في الخارج شيء بعينه اشتركا فيه، ولكن تَشَابها، فَفِي هذا نَظِير ما في هذا، كما أن هذا نَظِير هذا، وكُلٌّ مِنهما مُتمَيِّز بِذَاته وصِفاته عما سِواه، فكيف الخالق سبحانه وتعالى؟!

وهذا كله مَبسوط في غير هذا الموضع البسطَ الذي يَلِيق به، فإنه مَقام زَلَّت فيه أقدام، وضَلَّت فيه أَحلام، والله يَهدي مَن يَشاء إلى صِراط مُستَقِيم.

ومَن أَحْكَم الأصلَين المُتقَدِّمَين في الصِّفات والخَلْق والأَمْر، فيُمَيِّز بين المَأمُور المَحبوب المَرْضِيِّ لله، وبين غيره مع شُمول القَدَر لهما، وأَثبَت للخالق سبحانه الصِّفات التي تُوجِب مُبايَنَته للمَخلوقات، وأنه ليس في مَخلوقاته شيء مِن ذاته، ولا في ذاته شيء مِن مَخلوقاته؛ أَثبَت التَّوحِيد الذي بَعَث الله به رُسُلَه، وأَنزَل به كُتُبَه كما نَبَّه على ذلك في سورتَي الإخلاص: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

فإن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِل ثُلُث القرآن؛ إذ كان القرآن باعتبار معانيه ثلاثة أثلاث: ثُلُث تَوحِيد، وثُلُث قَصَص، وثُلُث أَمْر ونَهْي؛ لأن القرآن كلام الله، والكلام إما إنشاء، وإما إخبار، والإخبار إما عنِ الخالق، وإما عنِ المَخلوق، والإنشاء أمر ونهي وإباحة؛ فـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها ثُلُث التَّوحِيد، الذي هو خَبَر عن

الخالق، وقد قال ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»، وعَدْل الشيء -بالفتح- يكون ما سَاوَاه مِن غير جِنْسه[١].

كما قال تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة:٩٥]، وذلك يَقتَضِي أن له مِن الثَّواب مَا يُساوِي الثُّلُث في القَدْر، ولا يَكون مِثلَه في الصِّفة كمَن مَعه ألف دينار، وآخَر معه ما يَعدِلُها مِن الفِضَّة والنُّحَاس وغيرهما؛ ولهذا يَحتاج إلى سائر القرآن، ولا تُغنِي عنه هذه السورة مُطلَقًا، كما يَحتاج مَن معه نوع مِن المال إلى سائر الأنواع، إذ كان العبد مُحتاجًا إلى الأَمْر والنَّهْي والقَصَص.

وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها التَّوحِيد القَوليُّ العِلمِيُّ الذي تَدُلُّ عليه الأسماء والصِّفات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ وقد بَسطْنَا الكلام عليها في غير هذا المَوضِع[٢].

---

[١] الفرقُ بين «عَدْل» و«عِدْل» أنَّ الأوَّل ما ساوَى الشيء من غير جِنسه، والعِدْل ما ساواه من جِنسه، هذا الفَرْقُ بين الفتح والكسر.

[٢] شيخُ الإسلام رحمه الله له كتاب مُستَقِلٌّ تفسير سُورة الإخلاص، قد جمع فيه بُحورًا زاخِرة.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ الجملة هنا تتكوَّن من مبتدأ وخبر، وكلاهما معرفةٌ، وعند أهل البلاغة أنَّ المبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين فهما دالَّان على الحَصْر، فيكون المعنى: الله الصَّمَدُ لا غيره.

ومعنى الصَّمَد: فُسِّرَ بتفاسير كلها تَدُورُ على شيئين: الكامل في صِفاته، الذي افتقَرت إليه جميعُ مخلوقاتِه، فليس في صِفاته نقصٌ بوجهٍ من الوجوه؛ وهو غنيٌّ عمَّا سِواه، وكلُّ ما سِواه مُحتاجٌ إليه سبحانه وتعالى، فهو الكامل في صِفاته الذي افتقرَتْ إليه جميع مخلوقاتِه.

وسورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيها التَّوحِيد القَصْديُّ العَمَليُّ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وبهذا يَتَمَيَّز مَن يَعبُد الله مِمَّن يَعبُد غيره، وإن كان كِلاهما يُقِرُّ بأن الله ربُّ كُلِّ شيء.

ويَتَميَّز عباد الله المُخلِصون الذين لم يَعبُدوا إلا إيَّاه مِمَّن عَبَد غيره، وأَشرَك به، أو نَظَر إلى القَدَر الشامِل لكل شيء، فسَوَّى بين المُؤمِنين والكُفَّار، كما كان يَفعَل المُشرِكون مِنَ العَرَب؛ ولهذا قال ﷺ: «إِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ».

وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها إثبات الذات وما لها مِن الأسماء والصِّفات الذي يَتَمَيَّز به مُثبِتو الرَّبِّ الخالِق الأَحَد الصَّمَد مِن المُعطِّلين له بالحقيقة، نُفاة الأسماء والصِّفات، المُضاهِين لِفِرعون وأمثاله مِمَّن أَظهَر التَّعطِيل والجُحُود للإله المَعبُود، وإن كان في الباطن يُقِرُّ به كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، وقال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢].

والله سبحانه بَعَث أنبياءه بإثبات مُفصَّل، ونَفْي مُجمَل[١] .....

---

[١] **قوله رحمه الله**: «إثبات مُفصَّل ونفي مُجمَل» هذا هو الغالب، إذ الغالب أنَّ صفات الإثبات تأتي مُفصَّلة؛ لأنَّ كلَّ صفةٍ تُذكر يتبيَّن للمخاطَب من كَمال الموصوف ما لم يكن مَعلومًا من قبلُ؛ فمثلًا: «السميع» يتبيَّن لك أنَّ الله له سمعٌ، فإذا قلت: «العليم» زِدتَ علمًا بصفة كَمال وهي العِلم، وهكذا؛ ولهذا كان الغالب في صِفات الإثبات التفصيل، وقد يأتي إجمالًا مثل قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]، فهذا مُجمَل، و«الأعلى» يعني: الوَصْف الأكمل.

أمَّا النَّفي فالغالبُ فيه الإجمالُ؛ لأنَّ التفصيلَ في النفيِ يُعَدُّ إهانةً للموصوفِ وليس إكرامًا لـه، ولا إعـلاءً لشأنِه؛ ولهذا لـو قال رجـلٌ لملكٍ من الملوك: الحمد لله الذي لـم

فأَثْبَتوا له الأسماء والصِّفات، ونَفَوا عنه مُماثَلة المَخلوقات، ومَن خالَفَهم مِن المُعطِّلة المُتفلسِفة وغيرهم عَكَسوا القضيَّة؛ فجاؤُوا بنَفْي مُفصَّل وإِثبات مُجمَل؛ يَقولون: ليس كذا، ليس كذا، فإذا أَرادوا إِثباته قالوا: وجود مُطلَق بشَرْط النَّفْي، وبشَرْط الإِطْلاق، وهم يُقِرُّون في مَنطِقِهم اليُوناني أن المُطلَق بشرط الإطلاق لا يكون في الخارج، فليس في الخارج حيوان مُطلَق بشرط الإطلاق، ولا إنسان مُطلَق بشرط الإطلاق، ولا مَوجود مُطلَق بشرط الإطلاق، بخلاف المُطلَق لا بشرط، الذي يُطلَق على هذا وهذا، وينقسم إلى هذا وهذا، فإن هذا يُقال: إنَّه في الخارج، لا يكون إلا مُعيَّنًا مُشخَّصًا.

= يجعَلْك كالساحِر، ولا بنَّاء، ولا فَرَّاشًا، ولا حَمَّارًا ولا كلَّابًا، فسيكونُ مصيره الحبس؛ فهذه إهانةٌ، لكن إذا أراد أنْ يمدَحَه فقال: إنَّك ملك لا نرَى نظيرًا لك في مُلوك الدُّنيا، فهذا إجمالٌ يُعتبَر مَدْحًا عَظِيمًا له.

لكن يأتي التفصيلُ في النَّفي، إذا أرادَ الله عَزَّوَجَلَّ نفيَ صفةٍ مذكورة، فيريد الله عَزَّوَجَلَّ أن يَنفِيَها، أو يكون هناك تَوَهُّمٌ لصفة نقصٍ فينفيها الله عَزَّوَجَلَّ؛ ففي قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ هذا تفصيلٌ؛ لأنَّ قومًا قالوا: العزير ابن الله، والملائكة بنات الله، وما أشبَهَ هذا.

أو إذا كان هناك توهُّمٌ لصفةِ نقصٍ؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، لَمَّا كان خلق هذه المخلوقات العظيمة قد يتَوَهَّم الإنسان منه أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تَعِبَ، فنفَى الله ذلك عنه.

المهم: أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصَّلاة والسلام ولا سيَّما آخِرهم مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ جاؤوا بإثبات مُفصَّلٍ يجب أن يُقيَّد في الغالِب، وجاؤوا بنفيٍ مُجملٍ، لا تفصيلَ في النفي إلا لسببٍ.

أو يَقولون: إنَّه الوجود المَشرُوط بنَفْي كل ثُبوت عنه فيَكون مُشارِكًا لسائر المَوجودات في مُسَمَّى الوجود، مُتَميِّزًا عنها بالعَدَم، وكل مَوجود مُتمَيِّز بأمْر ثُبوتِيٍّ، والوجود خَير مِن العَدَم؛ فيَكون أحقَرُ المَوجودات خيرًا مِن هذا الذي ظَنُّوه وجودًا واجِبًا، هذا إذا أَمْكن تَحقِيقه في الخارج، فكيف وذلك مُمْتنِع؟ لأن المُتمَيِّز بين المَوجودِين لا يكون عَدَمًا مَحضًا؛ بل لا يَكون إلا وجودًا.

فهؤلاء الَّذِين يَدَّعون أنَّهم أفضل المُتأخِّرين مِن الفلاسِفة المَشَّائِين يَقولون في وجود واجِب الوجود ما يُعلَم بصَرِيح المَعقُول المُوافِق لِقَوانِينهم المَنطِقِيَّة أنَّه قول بامتِناع الوجود الواجِب، وأنه جَمْع بين النَّقِيضَين، وهذا في غاية الجَهْل والضَّلال[١].

وأمَّا الرُّسُل صَلوات الله عليهم طَريقَتهم طَرِيقة القُرآن؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢][٢].

---

[١] فكيف يقولون: إنَّ الربَّ واجبُ الوجود، هو الموجود بشرطِ الإطلاق؟! إذْ ليس موجودًا، فيَجمَعون بين النَّقِيضين: أنَّه واجبُ الوجود وأنَّه مستحيلُ الوجودِ؛ لأنَّ وُجودَ شيءٍ خالٍ من أيِّ قيدٍ أو شرطٍ، هذا مستحيلٌ، لو لم يكن من قَيْدِه إلَّا أنَّه موجود لكفى.

والعجَبُ أنَّهم يقولون: إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ موجود بشرط الإطلاق، ثمَّ يقولون: إنَّه واجبُ الوجود، والموجودُ بشرط الإطلاق مستحيلُ الوجودِ، فيجمعون بين النَّقِيضين، اللهمَّ اهدِهِم.

[٢] رب العزَّة بمعنى: صاحب العزة، ولا يمكن أن يكون المراد بربِّ العزة كالمراد بربِّك؛ لأنَّ ربَّك؛ أي: خالقك، أمَّا العزَّة التي هي وَصْف الله تعالى فهي غيرُ مخلوقةٍ؛ فيتعيَّن أن نَحمِلَها على المعنى الآخَر لكلمة «رب» وهو الصاحب، ولا غَرابة

والله تعالى يُخبِر في كِتابه: أنَّه حَيٌّ، قيُّوم، عليم حكيم، غفور، رحيم، سميع بصير، عَلِيٌّ، عَظِيم، خَلَق السَّمَوات والأرض وما بينهما في سِتَّة أيام، ثُمَّ استَوى على العَرْش، كَلَّم موسى تَكلِيمًا، وتَجَلَّى للجَبَل فجَعَلَه دَكًّا، يَرْضَى عنِ المُؤمِنِين، ويَغضَب على الكافِرِين، إلى أمثال ذلك مِن الأسماء والصِّفات.

ويَقول في النَّفْي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢]، فنَفَى بذلك أن تكون صِفاته كصِفات المَخلوقِين، وأنه ليس كمِثْله شيء، لا في نفسه المُقدَّسة المَذْكورة بأسمائه وصِفاته، ولا في شيء مِن صِفاته ولا أفعاله؛ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٣- ٤٤][1].

= أن يأتي «رب» بمعنى «صاحب»؛ لقوله ﷺ في اللقطة: «حتى يَجِدَها ربُّها»[1].

وقد يقولُ قائل: ألا يُمكن أنْ يكون المراد بـ«العزةِ»: العزةَ المخلوقة؛ يعني: رب العزَّة التي تكونُ للعباد؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦]، قلنا: هذا مُمكِن، لكنَّه خِلافُ ظاهرِ اللفظ؛ لقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

[١] قوله تعالى: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ ولم يَقُلْ: «وما فيهن» كما في قولِه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة:١]؛ لأنَّ التسبيحَ في الأصلِ من صِفات العُقَلاء، والعُقَلاء لهم الاسم الموصول «مَنْ»، ولما أراد عُموم المُلك لقولِه تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب في اللقطة، باب ضالة الغنم، رقم (٢٤٢٨)، ومسلم: كتاب اللقطة، باب معرفة العفاص والوكاء وحكم ضالة الغنم والإبل، رقم (١٧٢٢/ ٥) من حديث زيد بن خالدٍ رضي الله عنه.

.....

= أتى بـ«ما» الدالَّة على عُموم الملك، وقد ذهَب بعضُ أهل العِلم إلى أنَّ «ما» في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بمعنى «مَنْ».

إذا قال قائلٌ: تسبيح السَّموات والأرض وما بينَهما هل يشملُ الكفَّار؟

نقول: أمَّا بلسان الحال فنعم، وأمَّا بلسان المقال فلا، فإنَّ الكفَّار لا ينزهون الله عَزَّوَجَلَّ عمَّا لا يليقُ به، لكن حالهم تدلُّ على تسبيح الله عَزَّوَجَلَّ وتنزيهه، فهو -أي: الكافر- إذا تأمَّلَه الإنسانُ استَدَلَّ به على كمالِ الله عَزَّوَجَلَّ: كمال خلقه، وكمال تقديرِه، وتدبيرِه، كيفَ هدَى هذا وأضلَّ هذا؟ وما أشبه ذلك.

المهمُّ أنْ نقول: إنَّ الكافِرَ يُسبِّح الله بلسانِ الحال، وغيره بلسان الحال والمقال، حتَّى الجمادات تُسبِّح الله عَزَّوَجَلَّ ولكن لا نَفْقَهُ تَسْبِيحَهم؛ ويدلُّ لهذا أنَّ الحصَى كان يُسبِّح بيد النبيِّ ﷺ؛ وأنَّ الجماد له إرادةٌ؛ فإنَّ أُحُدًا لما صَعِدَ عليه النبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ارتَجف بهم؛ فخاطَبَه النبيُّ ﷺ قائلًا: «**اثبُتْ أُحُد، فإنَّما عليك نبيٌّ وصِدِّيق وشَهِيدان**»[1].

فإن قال قائلٌ: الشيء النامي إذا يَبِسَ وبَطَل نُموُّه هل ينقطعُ عن التسبيح؟

فالجواب: لا؛ ولذلك يُضعِّف قولَ مَن قال: إنَّ الرسول ﷺ لما غرز جَرِيدتين على القَبرين قال: «لَعَلَّه يُخفَّفُ عنهما ما لم يَيْبَسا»[2] قالوا: لأنَّهما قبلَ اليبس يُسبِّحان وبعدَ اليبس لا يُسبِّحان، وهذا غيرُ صحيحٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٧٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالمُؤمِن يُؤمِن بالله وما له مِن الأسماء الحُسْنى، ويَدعُوه بها، ويَجتَنِب الإلْحاد في أسمائه وآياته[١].

ومن أجْل هذا التَّعليل العَلِيل استَحبَّ بعضهم أنْ يخرُجَ الناسُ إلى القبور، ويَجلِسون للتسبيح عندَها، قالوا: لأنَّه إذا كان تسبيح الجماد يُخفف عن الميت، فتسبيح الإنسان الحيِّ يُخفِّف عنه من باب أَوْلَى، ولكن يُقال: إنَّ هذا غلط، فالرسولُ ﷺ قال: «**لعَلَّه يُخفِّف عنهما**» ولم يجزم، ثم إنَّه لم يَذكُر العلَّة فيكون قيَّد زمنَ التخفيف بيبس هاتين الجريدتَيْن.

[١] المؤمن يُؤمِن بالله تعالى، وبما له من الأسماء، وكذلك بما له من الصِّفات، ولا يخطر ببالِه أنَّ هذا الموصوف وهذا المسمَّى الذي تعدَّدت أسماؤه وصِفاته هو بنفسه مُتعدِّد أبدًا، وهؤلاء القوم يقولون: إذا أثبتَّ له اسمًا أو أثبتَّ له صفةً يلزم من ذلك التعددُ، خُصوصًا إذا أثبتَّ صفةً قديمةً -يعني: لا يزال مُتَّصفًا بها- لأنَّ أخَصَّ وصفٍ للإله عندَهم هو القدم، فمتَى أثبتَّ شيئًا قديمًا فقد أثبتَّ إلهًا آخَر.

فأولئك القوم المُعطِّلة يقولون: إذا أثبَتَّ لله بصرًا قديمًا، وسَمعًا قديمًا وعِلمًا قديمًا، وقُدرةً قديمةً، فقد أثبتَّ آلهةً مُتعدِّدةً؛ لأنَّ أخَصَّ وصفٍ للإله هو القِدَم.

وهذا لا شَكَّ غلط عظيم؛ إذ أخصُّ وصفٍ لله عَزَّوَجَلَّ ما لا يُسمَّى به غيرُه، ولا يتَّصف به غيرُه؛ مثل: الرحمن، ورب العالمين، وما أشبه ذلك.

فالمؤمن يُؤمِن بكلِّ ما له من الأسماء، وبكلِّ ما له من الصِّفات، ولا يرى أنَّه يعبُد غير الله، ولا يرَى أنَّ هذا تعدُّد، بل المعبود واحدٌ بأسمائه المعبود واحدٌ بصفاته تبارك وتعالى؛ ولهذا يقولُ رحمه الله: «ويجتَنِبُ الإلحاد في أسمائه وآياته» أفادَنا المؤلف رحمه الله أنَّ الإلحاد يكونُ في أسماء الله تعالى وآياته، وله دليلٌ في هذا؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ

.....

= ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت:٤٠]، فجعَل الله تعالى الإلحادَ في الأسماء والإلحاد في الآيات.

فالإلحاد في الأسماءِ له أنواعٌ:

أعظمها: أنْ يُنكِر أسماء الله ويقول: إنَّ الله لا يصحُّ أن نُسمِّيه باسمه؛ مثل غُلاة الجهمية والمعتزلة الذين أنكَرُوا أن يكون لله تعالى اسمٌ.

الثاني: -عكس الأوَّل- أن يُثبِت لله تعالى أسماء لكن يقول: إنَّها تدلُّ على صِفاتٍ مُشابهةٍ لصفات المخلوقين، وهذا أيضًا ضَلالٌ، ويُعتَبر هذا إلحادًا، ووجهُ كونِه إلحادًا أنَّ الإلحادَ هو المَيْل، ومنه قولهم: اللحد في القبر؛ لأنَّه مائلٌ إلى جانبٍ منه؛ أي: إلى الجانب القِبْلي.

الثالث: أنْ يُسمِّيَ الله تعالى بما لم يسمِّ به نفسه؛ يعني: يُحدِث لله تعالى اسمًا من عندِه، فإنَّ هذا إلحاد؛ لأنَّ الواجب على الإنسان أنْ يَلزَمَ الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، وألا يُثْبِتَ له اسمًا لم يُسَمِّ به نفسَه، فإنْ فعل ذلك مالَ عن الحقِّ؛ أرأيتَ لو أنَّ أحدًا أحدَثَ لك اسمًا غير اسمِك المعروف أتراه جنَى عليك؟ نعم، لا شَكَّ.

إذَنْ: إذا أثبَتَ الإنسانُ اسمًا لله تعالى لم يُسمِّ به نفسَه، فقد ألحَدَ في أسمائه، وتجرَّأ على الله تعالى، مثل الفلاسفة يقولون: من أسماء الله العلَّة الفاعِلة؛ لأنَّهم يقولون: الخالق علَّةٌ، والمخلوق معلولٌ، والبعض يُطلق عليه: علة العلل؛ لأنَّهم يرَوْن أنَّ هناك عِلَلًا أخرى يَحْدُثُ بها شيءٌ من المخلوقات، فيكون علَّة العلل هو الله! وهل سَمَّى الله نفسَه بالعلَّة؟ لا؛ لم يسمِّ نفسَه ولا سمَّاه رسوله صلى الله عليه وسلم.

وكذلك النَّصارى يُسَمُّونه الأب وبعضهم يقول: هو الآب -بالمد- وهذا أيضًا لم يُسَمِّ الله به نفسَه، فهذا أيضًا إلحادٌ.

.....

الرابع: أنَّ يَشتَقَّ الكافرُ من أسماء الله تعالى أسماءً للأصنام التي يعبدُها من دون الله تعالى؛ من ذلك تسميتُهم العُزَّى من العزيز، واللات -بالتخفيف- من الله، هذا من الإلحاد في أسمائه؛ لأنَّه اشتقَّ من أسمائه أسماء لما يُنافي توحيده عَزَّوَجَلَّ، فيكون في هذا عُدوانٌ على الأسماء، والعُدوان على الأسماء إلحادٌ فيها.

وقد تَوَعَّدَ الله سبحانه وتعالى مَن ألحَدَ في أسمائه فقال: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ اتركُوهم لله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ سيَجزِيهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ في الدنيا والآخِرة، وإذا فاتَهم جَزاؤُهم في الدُّنيا فسيجزون في الآخِرة.

والإلحاد في آيات الله يُعرَف إذا قسَّمنا آيات الله عَزَّوَجَلَّ إلى قسمين: آيات كونيَّة، وآيات شرعيَّة.

ومن الآيات الكونيَّة: ما يتحدَّث الله تعالى به عن الكون مثل آيات الليل والنهار، والشمس والقمر، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠]، وهذه كثيرةٌ في القُرآن، هذه آيات كونيَّة، وإنَّما كانت آيات لأنه لا يُمكن لأحدٍ من البشر أنْ يأتي بمثلها؛ لأنَّ الآية هي العلامة المعيِّنة لما دلَّت عليه؛ لأنَّه لو كان لأحدٍ أن يأتيَ بمثل هذا ما كانت آية لله تعالى.

والآيات الشرعيَّة: وهي ما جاءت به الرُّسل كالقُرآن والتوراة والإنجيل؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود:١].

ويكون الإلحادُ في الآيات الكونيَّة: بنسبتِها لغير الله باعتقاد أنَّ لله تعالى شريكًا فيها، أو باعتقاد أنَّ له مُعِينًا فيها؛ كما أشار الله لهذا في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن

.....

= شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣] أي: مُعِين، فنفَى الملك المستقِل والملك المشتركَ والإعانة؛ فمَن قال: إنَّ لله تعالى مُعِينًا في المخلوقات فإنَّه مُلحِدٌ في الآيات، ومَن قال: إنَّ في المخلوقات مَن ينفَرِدُ به غير الخالق فهو أيضًا مُلحِد، ومَن قال: إنَّ المخلوقات لله فيها شريكٌ فهو ملحدٌ.

والإلحاد في الآيات الشرعيَّة: يكون بتكذيبها أو تحريفها أو مُخالفتها:

فبتكذيبِها كما لو قال: هذا ليس كتاب الله.

أو بتحريفها لفظًا أو معنًى؛ مثل أن يقول: استوى على العرش يعني: استَوْلَى عليه، فهذا مُلحِدٌ في آيات الله الشرعية؛ لأنَّه حَرَّفَها.

أو بمُخالَفتِها بعدَمِ امتثال الأمر أو بارتِكاب النهيِ، هذا إلحادٌ.

وإنْ كان الإلحاد في الآيات الشرعيَّة عُرفًا يكون بالخروج من الإسلام -لكن شرعًا: لا-، فكل مَن خالف النصوص بتركِ الأوامر أو بارتكاب النواهي فهو مُلحِدٌ مائلٌ عن الحقِّ، فالحقُّ أنْ تمتَثِلَ أوامِرَ الله وتجتَنِبَ نواهيه.

فكلُّ مَن عصَى الله في أمرِه فهو مُلحِدٌ في الآيات الشرعية؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ يعني: وسوف نُحاسِبُهم؛ بدليل قوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت:٤٠] كلُّ الناسِ يقولون: الثاني، وكأنَّ الله تعالى يقول: هؤلاء سوف يُلقَوْنَ في النارِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] الحُسنَى: مُؤنَّث أَحْسن، فلا يُوجَد في أسماء الله ما لا يدلُّ على معنًى كامل، فالحُسنَى بمعنى أحسن.

وبهذه القاعـدة التي دَلَّ عليها اللفظ، يتبيَّن أنَّ مَن جعَل من أسماء الله الدَّهر فقد

.....

= أخطأ خطأً بَيِّنًا، فإن من العلماء من قال: إن من أسماء الله الدهر؛ لحديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «**قال الله تعالى: يُؤذِيني ابنُ آدم؛ يَسُبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ بيَدِي الأمرُ**»[1] فقال: إنَّ الله قال: أنا الدَّهر، فالدهر إِذَنْ من أسماء الله.

فيُقال: هذا غلط؛ إذ الحديث معناه: وأنا مُدبِّرُ الدهر، مُقلِّبُ الدهر، بدليل قوله: «**بيدي الأمر أُقلِّبُ الليل والنهار**».

والذين يسبُّون الدهر لا يسبُّون الله تعالى إنما يسبون الزمَن؟ لا شكَّ أنَّهم يسبُّون الزمن ولا يسبُّون الله، يقول: هذا زمن شرٍّ، هذا زمن «كذا»، وهم لا يقصدون الخبر، لو قصدوا الخبر فليس فيه شيء، لو أراد الإنسان مثلًا بقول: هذا اليوم عصيبٌ، هذا اليوم شرٌّ، يريد الإخبارَ ولا يريدُ الإنشاءَ والذمَّ فلا بأس، قال لوطٌ عليه السلام: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ [هود:٧٧].

المهمُّ: أنَّ الدهر ليس اسمًا من أسماء الله، ولا يُوجَد في أسماء الله إلَّا ما يدلُّ على معنًى كامل هو أكمل المعاني؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ فالدُّعاء: دعاء مسألة، ودعاء عبادة؛ أمَّا دعاء المسألة فأنْ يقول الإنسان مثلًا: يا رب اغفر لي، هذا سؤال، وأمَّا دعاء العبادة كأنْ يُصلِّي أو يصوم أو يتصدَّق، ووجه تسمية العبادة دعاءً: أنَّ العابد إنَّما يُريد من الله نَوالًا، فهو داعٍ بلسان الحال؛ فلو سألت أيَّ إنسان يعبدُ الله: لماذا تعبُدُ الله؟ لقال: أرجو ثوابَ الله وأخاف عقابَ الله؛ وعليه فتكونُ العبادة دعاءً بلسان الحال؛ إذن «ادعوه بها» دعاءَ مسألةٍ ودعاءَ عبادةٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، سورة حم الجاثية، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦/ ١).

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت:٤٠]، وهو يَدعو الله وحده، ويَعبُده وحده، لا يُشرِك بعبادة ربِّه أَحَدًا.

ويَجتَنِب طَرِيق المُشرِكِين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ

ودعاء المسألة: أن تُقدِّم الاسم الكريم أمامَ مطلوبك، أو تختِم مطلوبك به، فتعليمُ النبيِّ ﷺ أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ يدعو في صَلاته فيقول: «**فاغفِرْ لي مغفرةً من عندِك وارحَمْني، إنَّك أنتَ الغفور الرحيم**»[1]، هذا دعاء الله تعالى بأسمائه بعد المطلوب.

أمَّا الدُّعاء بالاسم قبلَ المطلوب مثل أنْ تقولَ: اللهمَّ يا غفور يا رحيم، اغفر لي وارحمني، فهذا دعاء بالاسم قبل المطلوب.

أمَّا دعاء العبادة فأنْ تتعبَّد لله بمُقتَضى هذه الأسماء الكريمة، إذا علمت أنَّه رحيم تتَعرَّض لرحمتِه، إذا علمت أنَّه غفور تتعرض لمغفرته، على عكسِ ما يَفهَمُه العوامُّ، فالعوامُّ إذا عرفوا أنَّ الله غفور عصوا الله تعالى، وتعرَّضوا لمعصيته، وتسأله لِمَ عَصَيْتَ؟ فيقول لك: لأنَّ الله غفور رحيم!

إذَنْ: فدعاء العبادة أنْ تتعبَّد لله بمُقتضاها، فإذا علمت أنَّه «غفور» فاسْتَجْلِبِ المغفرة بالتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا علمت أنَّ من أسمائه «السميع» تتعبَّد إلى الله عَزَّوَجَلَّ بهذا الاسم بأنْ تُراقب الله تعالى، فلا تقولُ قولًا يُغْضِبُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّك إنْ فعلتَ فسوف يسمَعُك سبحانه وتعالى؛ وهَلُمَّ جَرًّا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الدعوات والتعوذ، رقم (٢٧٠٥/ ٤٨).

رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٦- ٥٧][١].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ:٢٢- ٢٣][٢].

---

[١] قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ﴾ محلُّها من الإعراب خبر ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾؛ يعني: أولئك الذين يدعونهم هؤلاء هم يسألون الله عَزَّوَجَلَّ يَطلُبون الوسيلةَ أيُّهم أقرب، فكأنَّه قال: أنتم أيُّها الداعون، ابتغوا إلى الله تعالى الوسيلةَ.

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ يعني: لو دعوتموهُم فلا يمكن أنْ يرفَعُوا عنكم الظُّلم ويَكشِفوه، ولا أنْ يُحوِّلوه إلى غيرِكم، ولا يحولوه فيكم من جهةٍ إلى جهةٍ؛ فالمريض في عضُدِه لو دعا هذه الأصنام لا يُمكن أن تحول المرض من العضد ومن البدن كلِّه، وهذا هو كشف الضُّرِّ، ولا يمكن أنْ تحول المَرَض من العَضُدِ إلى الإصبع.

إِذَنْ: هؤلاء لا يَملِكون كشفَ الضرِّ بالكليَّة ولا تحويله إلى مكانٍ آخَر، بل ولا تحويله إلى خِفَّةٍ في مَرَضٍ أو شفاء.

فالخلاصة: أنَّ هؤلاء الذين يُدْعَوْنَ من دون الله تعالى لا يَملِكون شيئًا أبدًا.

[٢] قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ هذا تحَدٍّ لهؤلاء الذين يُشرِكون بالله تعالى: اللات والعُزَّى وهبل وغيرها، يقول: ادعوهم، فهم: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وهي صِغار النَّمل.

.....

وليست كما قال الذَّرِّيُّون الآن يقولون: إنَّ الذَّرَّة هي الجزء الذي لا يتجزَّأ، فإنَّ شيخ الإسلام رحمه الله أنكَرَ هذا، وقال: إنَّه ليس هناك جزءٌ لا يتجزَّأ -مهما كان- فلا بُدَّ أن يتَجزَّأ، وأيضًا القُرآن نزَل بلغة العرَب، وما يفهمه العرب أنَّ الذرَّة هي صِغار النمل، فيُضرَب بها بالمثل في القِلَّة، فهؤلاء لا يَملِكون مِثقالَ ذرَّة في السموات ولا في الأرض، وصدَق الله العظيم، كلُّها جمادٌ أو أمواتٌ أو أحياءٌ لا يملكون ذرَّةً في السموات والأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، ﴿وَمَا لَهُمْ﴾؛ أي: المعبودات ﴿فِيهِمَا﴾؛ أي: في السموات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ يعني: مشاركة، وشِرك هنا مبتدأ مُؤخَّر مُؤكَّدة بـ«مِن» الدالَّة على التوكيد ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم﴾؛ أي: هذه المعبودات؛ ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ أي: مُعِين.

إِذَنْ: انتفت كلُّ الأسباب الثلاثة؛ فلا ملكَ استقلالي، ولا ملكَ مُشارَكة، ولا مُعاوِنَ، والفرق بين هذه الثلاثة واضحٌ.

بَقِيَ شيءٌ رابعٌ -يمكن أنْ يتَعلَّق به هؤلاء المشركون-: وهو الشفاعة؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وهل يُمكن أن يَأذَنَ عَزَّوَجَلَّ لهذه الأصنام أنْ تشفَعَ لعابِديها؟

الجواب: لا يُمكن؛ لأنَّ الله تعالى لا يَرْضاها، ولا يَرْضَى عن عابِديها، فقطَع الله تبارك وتعالى جميعَ الأسباب والوسائل التي يتعلَّق بها هؤلاء المشركون.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ هذه الجملة في الملائكة؛ يعني: أنَّ الملائكة وهي أشرَفُ وأعظَمُ من مَعبُوداتهم تُصابُ بالفزَعِ إذا أوحى الله

وهذه جُمَل لها تَفاصِيل، ونُكَت تُشِير إلى خَطْب جَلِيل.

فلْيَجْتَهِدِ المُؤمِن في تَحقِيق العِلْم والإيمان[١]، ولْيَتَّخِذِ اللهَ هادِيًا ونَصِيرًا وحاكِمًا ووَلِيًّا؛ فإنه نِعْم المَولَى ونِعْم النَّصِير، وكفى بِربِّك هادِيًا ونَصِيرًا.

= الوحيَ، فإذا أَوْحَى الله الوحيَ ارتجفَتِ السموات على عظمِها -سبحان الله- وصعقت الملائكة من شِدَّة ما تسمعُ.

ثمَّ إذا أفاقوا، و﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: أُزِيل عنها الفزَع، ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال بعضُهم لبعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾؛ أي: قال الحقَّ، فقوله سبحانه وتعالى كله حقٌّ، فليس به كذبٌ في خبرٍ، ولا ظُلْم وجورٌ في حُكْمٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] صِدقًا في الأخبارِ، وعَدلًا في الأحكام، وهذا هو الحقُّ.

وضدُّ الحقِّ هو الباطِل؛ فالكذبُ في الخبرِ باطلٌ، والجورُ في الحُكمِ باطلٌ، وقولُ الله تعالى كلُّه حقٌّ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ العَلِيُّ بذَاتِه وصِفاته سبحانه وتعالى؛ فهو العَلِيُّ بذاته فوق كل شيء، وهو العَلِيُّ بصِفاته فوقَ كلِّ شيء في صِفاته عَزَّوَجَلَّ؛ في سَمعه وبصَرِه وقَهرِه وسُلطانه وغير ذلك من صِفاته.

والكبير؛ أي: ذو الكِبرياء والعظَمة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧].

[١] أي: فليجتَهِدْ في تحقيق العلم وتحقيقِ الإيمان، فالمؤمِنُ مؤمنٌ وعنده علمٌ، وليُمحِّصه من شَوائِب الهوى في العِلم، وشَوائِب الشكِّ في الإيمان، فإنَّ كثيرًا من الناس عنده علم، لكن له هوى يَعصِفُ به حتَّى يُحَرِّفَ النُّصوص عن مَواضِعِها بِلَيِّ أعناقِها إلى ما يهوى.

وإن أَحَبَّ دَعَا بالدُّعاء الذي رواه مسلم وأبو داود وغَيرُهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النَّبيَّ ﷺ كان إذا قام يُصلِّي مِن الليل يَقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[١].

وكلُّ أهل البدع من هذا النوعِ خالَفُوا الهدى إلى الهوى، والعِياذ بالله، لكنْ مُقِلٌّ ومُستكثِرٌ، كذلك أيضًا يُوجَد بعض الناس في المسائل الفِقهيَّة العَمَليَّة ينحو نحوًا مُعيَّنًا؛ يتعصَّب لإمامٍ أو لشيخٍ على غير هُدًى، هذا أيضًا من الأمور المذمومة، فالواجبُ التعصُّب للحقِّ، وليس التعصُّب للحقِّ بالمعنى المفهوم، ولكن نصرٌ للحقِّ.

كذلك يجبُ على المؤمن أنْ يُحقِّقَ إيمانَه، وأنْ يكونَ دائمًا مُراقبًا لقلبِه -حقَّق الله لي ولكم الإيمانَ- يجبُ دائمًا أن يُراقِبَ المؤمن قلبَه ماذا حصَل فيه؛ فقد يكونُ فيه هوًى جارِفٌ، أو حبُّ دنيا، أو حبُّ رِئاسة، أو حبُّ جاهٍ، أو ما أشبه ذلك، فليكُن الإنسان يُلاحِظُ قلبه دائمًا.

[١] كان النبيُّ ﷺ يستَفتِحُ قيامَ الليل بهذا الدُّعاء: «**اللهمَّ ربَّ جبْرَائيل وميكائيل وإسرافيل...**»[(١)] فيستَحضِر عظمةَ هؤلاء الملائكة التي باستِحضارها يعظِّم ربَّه عَزَّوَجَلَّ، ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام؛ فيعرف عظمةَ جبرائيل بما حدَّث عنه ﷺ أنَّه رآه وله ست مئة جناحٍ قد سَدَّ الأُفُق[(٢)]، فإذا ذكَر هؤلاء الثلاثةَ وعظمةَ مَن عَرَف عظمتَه منهم، ترَقَّى بذلك إلى عظمةِ خالِقِهم عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤/ ٢٨٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

.....

ثمَّ إنَّ هؤلاء الثلاثة اختارَهُم النبيُّ ﷺ لأنَّ جبرائيل يأتي بما فيه حياةُ القُلوب، وهو الوحيُ؛ لأنَّه مُوَكَّلٌ به، وميكائيل مُوَكَّلٌ بما فيه حياة الأرض والنبات وهو القَطر، وإسرافيل مُوَكَّلٌ بما فيه حياةُ الأبدان الحياة الأبَدِيَّة، وهو الصُّورُ؛ لأنَّه إذا نَفَخَ في الصور النفخةَ الثانية قامَ الناس يَنْظُرُونَ.

وإنَّما اختارَهُم الرسولُ ﷺ في دُعَائِه في قيام الليل لأنَّ قيام الليل هو أوَّل عملٍ يبدؤه الإنسان في يومه؛ فناسب أن يفتَتِحَه بربوبيَّة الله تعالى لهؤلاء الملائكة الكِرام.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ المراد: الغَيْبُ المُطلَق؛ وذلك لأنَّ الغيبَ نوعان: غيبٌ نِسبِيٌّ وغيبٌ مُطلَقٌ، فالغيبُ النِّسبيُّ ما كان غيبًا بالنسبة لشخصٍ مُعيَّن، والغيب المُطلَق ما كان غيبًا على جميع الخلق، والغيبُ الذي اختَصَّ الله به هو الغيب المُطلَق؛ ولذلك مثلًا الذين في الشارع الآن هم بالنسبة لنا غيب، وبالنسبة لمن في الشارع شَهادة، لكن المستقبل غيبٌ مُطلَقٌ لا يعلمُه إلا الله؛ ولهذا قالَ سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

ولهذا كان مَن أتى الكُهَّان فصَدَّقَهم في المستقبل قد كفَر بما أُنزِلَ على محمَّدٍ ﷺ، وكذلك مَن صَدَّقَ أقوالَ المُنَجِّمِينَ الذين يقولون: إنَّك وُلِدتَ في النوء الفلاني، فأنت مَشؤُومٌ، أو مَسعودٌ، أو ما أشبه ذلك؛ فمَن صدَّقَهُم بهذا فقد كفَرَ بما أُنزِلَ على مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هل المراد في الدُّنيا أم الآخِرة؟ في الدنيا والآخِرة فهو يحكُم بين عبادِه في الدُّنيا؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]،

وذلك أنَّ الله تَعالَى يَقول: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة:٢١٣] أي: فاختَلَفوا كما في سورة يونس[١].....

= كذلك الحكم النِّهائي يوم القيامة بين العباد، حتَّى إنَّه عَزَّوَجَلَّ يحكُم للشاة الجمَّاء من الشاة ذات القُرون -وهن بهائم- لكن يحكُم بينها؛ ليَتبيَّن ويَظهَر للعالم في ذلك اليوم المشهود كمال عَدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله ﷺ: «**اهدِني لِـمَا اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنِك؛ إنَّك تَهدِي مَن تَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ**» الرسولُ عليه الصَّلاة والسلام يَسألُ الله عَزَّوَجَلَّ أنْ يَهدِيه لما اختلف فيه من الحقِّ، وهل نحن نسأل هذا؟

الجواب: قليل، لكن نقول: إذا كان محمَّدٌ رسول الله ﷺ يسألُ ربَّه أنْ يَهدِيَه لِـمَا اختُلِفَ فيه من الحقِّ، فنحن يجبُ علينا أنْ نسألَ الله ذلك، وألا نعتزَّ بأنفُسِنا، وألا نغترَّ بعُلومنا، فعلينا أنْ نسأل الله دائمًا أنْ يَهدِيَنا لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنه.

وقوله ﷺ: «**بإذْنِك**» هل هو عائدٌ على قوله: «**لما اختُلِف فيه**» أم هو عائدٌ على قوله: «**اهدني**» أم على الأمرين جميعًا؟

الجواب: على الأمرين جميعًا؛ لأنَّ الاختلاف بإذن الله، والهداية بإذن الله؛ «**إنَّك تهدي مَن تشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ**» وهو دِين الله عَزَّوَجَلَّ.

[١] في سورة يونس قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس:١٩]، وكذلك أيضًا في سورة البقرة أشار الله تعالى إلى الاختلاف: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]؛ إِذَنْ: كانوا أمَّةً واحدةً فاختلَفُوا فأرسَلَ الله الرُّسُلَ تحكُم بينهم.

وقد قِيل: إنَّها كذلك في حَرْف عبد الله[١]: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣][٢].

---

[١] قوله رحمه الله: «في حَـرْفِ عبد الله»؛ أي: في قِـراءة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ الذي في قِراءته: «كان الناسُ أُمَّةً واحدةً فاختَلَفُوا فبعَثَ اللهُ النبيِّينَ مُبشِّرين ومُنذِرين»[(١)].

[٢] قوله تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الضميرُ يَعُودُ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكن بواسطةِ الكتاب.

* * *

والحمد لله على التَّمام، ونسأل الله أنْ يُوفِّقنا للخير، وقد ختَم شيخ الإسلام رحمه الله كتابَه هذا بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ففيه براعةُ اختِتام؛ فإنَّه ختَم بها هذا الكتابَ المسمَّى «**اقتضاء الصراط المستقيم مخالفةَ أصحاب الجحيم**»، رحمه الله وعفَا عنه، وجمَعَنا وإيَّاه في جنات النعيم، إنَّه على كلِّ شيء قدير، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

وصلى الله وسلم وبارك على نبيِّنَا محمدٍ وعلى آله وأصحابه

ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين

* * *

---

(١) أخرجها الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٦).